كتب قرأتها :

فى غربال ميخائيل نعيمة

للأستاذ حبيب الزحلاوى

كتاب يساير الجيل بعد الجيل ، يمضى قدُماً مع الفكر فى تطوره ، والعقل فى تدبره ، والقلب فى يقظته . تقرأ فيه صورة التوثب فى شبابك ، وصورة الترصّن فى كهولتك ، وآية التوطد والاستقرار فى شيخوختك . تلمح فيه الدقيق من رسوم الحياة مجسمة فى سطور تعبر كل كلمة وجملة وعبارة فيها عن معنى جديد من معانى الحياة دائمة التجدد . إنما هو كتاب خالد ، قد يصلح على كر السنين ، لزمنك ، ولمن يأتى بعد زمنك

هذا الكتاب هو « الغربال » ومؤلفه هو الأستاذ ميخائيل نعيمة ...

من خلائق مؤلف كتاب « الغربال » صفاء فى الذهن ، كما يقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، واستقامة فى النقد ، وغيرة على الإصلاح ، وفهم لوظيفة الأدب ، وقبس من فلسفة ، ولذعة من التهكم » .

لم يغال الأستاذ العقاد فى وصف مزايا المؤلف الأدبية ، ولم يتقول له من الخلائق ما ليس فيه .

إن نظرة فاحصة تُلقى على فصول الكتاب تكفى لأقامة البرهان وإنهاض الدليل ، على أن الأستاذ العقاد لم يداهن مؤلف « الغربال » ولم يرائه كما يرائى ويمالق أكثر أدباء هذا العصر خصوصاً من يدّعون أنهم من النقاد المتجردين عن الأهواء والأغراض . كما أنها تشير بوضوح إلى اتجاهات المؤلف ، وإلى الهدف الذى صوّب إليه سهامه ، والغاية التى رمى إليها ، وأنه كان لا محيص ألبتة لصاحب نفس كبيرة مثله ، يعرف الحب والتمرد ، والحرية ، عن صرّخة مدوية يصرخها فى وقت كثر فيه لغط الرجعيين المتحجرين من الكتّاب المحافظين فى مستهل هذا القرن واشتد نقيق الضفادع ، أعنى الكتاب الذين أخذوا يهرفون بالتجديد العصرى ، والحديث المبتكر .

صدر كتاب « الغربال » إثر صدور « الديوان » لمؤلفيه الأستاذين عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازنى ، وانفجرت فوهة بركان « الديوان » تقذف الحم عقب صدور «منهل الوراد فى علم الانتقاد» لمؤلفه المرحوم قسطاكى بك الحمصى ، لذلك رأيت أن أقول كلمة عابرة فى الكتابين الأخيرين توصلا إلى تعريف الكتاب الأول ، ولأقرر أيضاً أن فن النقد الأدبى سلك إلينا المسلك الطبيعى فى تدرجه وتطوره .

لم يكن الأدب العربى يعرف أن للنقد قواعد بأصول تعرف به مزايا هذا الفن ومدارسه وأساليبه وتقسيماته . وقد عرفنا ، نحن أبناء هذا الجيل أن المرحوم قسطاكى الحمصى نقل لنا ما كتبه جهابذة فن النقد عند الفرنسيين أمثال سنت بوف ، وربنان ، وتين ، وفرديناند برونتير ، وأميل فاجيه ، وأدلف بريسون ، وجول لومتير . فكان رحمه الله مُشعل المصباح الأول فى جادّة هذا الفن فى مستهل القرن العشرين ، أى فى عام ١٩٠٧ .

أما كتاب الديوان فقد كان معولا فى قبضة رجلين قويين أهويا به على ثلاثة من « أصنام الأدب » كنا نحسبهم آلهة فى ثياب شعراء ، وقد حدث ذلك فى عام ١٩٢١ .

أما كتاب « الغربال » فقد صدر فى عام ١٩٢٣ يحمل فى طياته جواهر القواعد التى نقلها قسطاكى الحمصى عن الفرنسيين ، ولباب فنون النقد التى أخذها هو عن كبار النقاد من الروس والأمريكان والإنجليز ، ولم يتحرج من انتزاع المعول من قبضتى العقاد والمازنى وهزّه فى وجوه شعراء وكتاب ، فأرعبتهم هزة المعول تلك أكثر مما أوجعتهم ضربات العقاد والمازنى ، ثم أخذ يعرفنا بالكاتب والشاعر والناقد ، يوضح لنا معالمهم ، ويعدد خصائصهم ، ويشرح مزاياهم ، فقال فى الكاتب :

« ... إنما الكاتب قلب يخبر ، وعقل يفكر ، وقلم يسطر ، فحيث لا شعور فلا فكر ، وحيث لا فكر فلا بيان ، وحيث لا بيان فلا أدب .

« الشعر والفكر والبيان ، ثلاثة لا يكون رجل كاتباً إلا إذا توفرت له أكثر من توفرها لسواد إخوانه فى البشرية ، ولولا تفاوت الناس بعمق الشعور واتساعه ، وحدة الفكر واندفاعه ، وجمال البيان وجلائه ، لكان كل من عرف القراءة والكتابة كاتبا ...

« على سطح هذه الأرض قلوب عديدة ، غير أن أكثرها تتدفق الحياة من حوله ومن فوقه ، فتنحدر عنه انحدار الموجة عن الصخرة . إن أمثال هذه القلوب لا تخبر ، وإن خبرت ، فمن تخمة فى البطن ، أو تكمش ، أو عن وجع فى الرأس .

« وعلى الأرض عقول كثيرة ، وأكثرها تتناوله الأشياء ولا يتناولها ، وتقربه ولا يقربها ، فأمثال هذه العقول لا تفكر بل تدور مع الليل والنهار ، بقوة العادة والاستمرار .

« وعلى الأرض قناطير من الأقلام ، ولكن منها ما يقول له العقل والقلب اكتب « نعم » فيكتب « لا » ، إن مثل هذا القلم لا يسطر ، وإن سطر فحروفاً سوداء على أوراق بيضاء لا علاقة لها بين عقل الكاتب وقلبه .

« ومن نكد البشرية — وقد يكون من حسن حظها — أن أمثال ما ذكرت من العقول والقلوب والأقلام ، هى القاعدة السائدة فيها ، وما اختلف عنها فشذوذ ، وكل شاذ نادر ، لذلك ندر وجود الكتاب والشعراء وأبناء الفن .

« للناقدين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء ، والمفاضلة بين الواحد والآخر ، وتفضيل هذا على ذاك ، أو ذاك على ذلك ، وقد يكون فى مقابلتهم وتفاضيلهم نفع لهم ولقارئيهم ، أما أنا فإن عثرت على كاتب له قلب يخبر ، وعقل يفكر ، وقلم يسطر ، شكرت ربى ألف مرة ومرة ، وتركت للقارىء المقارنة بينه وبين سواه ، ومحاسبته بالخطأ والصواب ، والحلال والحرام ، والنفع والضرر ، فتقديرك الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنها ، فى سطوره وبين سطوره ، لا بما يقرؤه سواك ، فرب كتاب أطالعه فألقيه ترديد أصداء بعيدة ، هى أصداء أفكار وعواطف خبرتها ونبذتها من زمان ، ويطالعه سواى فيرى فى كل سطر من سطوره فكراً جديداً وعاطفة جميلة والعكس بالعكس .

« لذلك لست أرى جزيل نفع فى المقارنة بين الكتاب والشعراء ، ومتى أنست من كاتب قلبا يحس ، وفكراً يقاد ويستنتج ، وقلماً يصور بإخلاص ، قمت إذ ذاك مقدر الكتابية ، لا بعدد ما يضمن سطوره من « الحقائق الراهنات و « المعجزات البينات » وغريب المفردات ، بل ما يثيره فى من العواطف والأفكار ، وبما يوجه إليه بصرى من ظواهر الأمو وبواطنها حتى إنى لأوثر كاتباً يخالفنى فى كل رأى أراه ، على كاتب ينطق بأفكارى وعواطفى ، فقد يروقنى من الثانى جلاء و الإفصاح ليس لى عوتلك منة صغيرة ، ولكن منة الأول على أكبر وأوفر ، لأنه يكشف لعينى عوالم كانت خفية عنها ، ويفسح لفكرى وعاطفتى مجالا ما كان لها ، فيدفعنى بذلك إلى تصفية حسابى مع نفسى ، وإلى تقويم بضاعتى الروحية ، ولولا ذاك لما عرفت أنى من أبناء هذه الحياة ... »

فى الناس من يعتقد أن لا فائدة ألبتة للنقد الأدبى ما دامت أقيسته قائمة على الذوق الذاتى ، وفيهم من يقول إن فى مكنة كل كاتب التصدى للنقد ، فيتجنى إذا طاب له التجنى ، ويتعسف إذا حفزته نزوة إلى العسف ، وإنه فى الواقع لا يجنى من النقد سوى عداوة الناس ، وخصومة الأصدقاء . فإلى هؤلاء وأضرابهم أقول : ما أكثر ما يقال فى الناقد من حق ومن باطل ، وما أحوج الناقد إلى الجرأة والصبر على مخالفة الناس ، لا لأنه أعرف ببواعث نفسه على النقد من سواه ، وأبصر فى تسديد سهامه إلى أهدافها ، وأكثر نجوة على الحياة الأدبية من كل الناس ، بل لأنه غيور على الأدب مخلص للحياة الأدبية ، بيد أن مؤلف «الغربال» يقول ... :

« ... إن مهنة الناقد الغربلة ، لكنها ليست غربلة الناس ، بل غربلة ما يدونه قسم من الناس من أفكار وشعور وميول ... وظيفة الناقد حك فكره بفكر المؤلف ، واستجهار عاطفته ، وتنقية قمحه عن زوانه واحساكه .

(البقية فى العدد القادم)

حبيب الزحلاوى